في الأدب الانجليزي

# ٢ـ الكائنات الغيبية

## في شعر شكسبير

## The Supernatural

بقلم خيري حماد

يجب علينا لفهم هذه الروح في شعر شكسبير أن نطلع على الحالة العقلية التي كانت تسود عصره والعصور التي سبقته . قال كلارك : « لقد كان هناك عدد عظيم من الملحدين والشكاكين وجدوا في عصر كان بمثابة الخطوة الأولى في ترقية العلوم المعروفة لدينا الآن . فقد كان تلاميذ كوبرنيكس الفلكي يتساءلون ويتجادلون في كل ما عرف من النظريات الفلكية من قبل ، وكان هناك نفر آخر من الكيميائيين دحضوا حجج مدعي الكيمياء القدماء ، ولكن هذا النضال لم يكن مقتصراً على جماعة المجددين فحسب ، بل وجد هناك نفر آخر من القدماء المقلدين الذين كانت أقصى غايتهم مقاومة هذا التيار الجارف . وإن من الغرابة أن نجد الملكة اليصابات تستشير المنجمين والدجالين في تعيين الوقت المناسب للاحتفال بتتويجها ملكة على انكلترة »[1]

ومن حسن حظ العلم قيام عدد من المفكرين أثبتوا فساد كثير من النظريات القديمة المألوفة فبزغ نجم رينولد سكوت ( Reginald Scott ) لما هاجم عدداً من العقائد الدينية المألوفة ، ولم يقتصر هذا التجدد على المفكرين من رجال العلم بل تعداه إلى رجال الكنيسة أنفسهم فظهر هناك من رجال الكهنوت عدد حاول إصلاح الديانة مما طرأ عليها من الخرافات والأباطيل

أما الخرافات فكانت تسيطر على جميع مناحي الحياة في ذلك العصر . فكان السحر بطرقه المختلفة مهنة تمتهنها النساء اللواتي كانت تغلب عليهن صفة الذبول والكبر وبشاعة المنظر . وكان معظم هؤلاء النسوة من الشريرات القذرات ممن كان أقصى غايتهن ايقاع الضرر وبذر المساوئ في المجتمع البشري . غير أنه وجد في نفس العصر بعض ساحرات كان همهن شفاء المرضى والقيام بخدمات حسنة للمحتاجين والمهددين بالأخطار

قام الناس على اختلاف طبقاتهم يناوئون السحر والسحرة فهاجموا الساحرات في عقر دورهن وكانوا يأخذونهن راسفات في الاغلال إلى السجون حيث ينتظرن محاكمتهن أمام مجلس من القضاة الذين كرهوا السحر وما يأتي به أمثال هؤلاء الشريرات من موبقات وآثام . فكانوا يعذبونهن بأشد أنواع العذاب . فمنهن من ربطن إلى جذوع الأشجار حيث ذقن الموت جوعاً ، ومنهن من كان يطلب إليهن اعادة الصلوات قبل القائهن في النار المضطرمة

وكان من السائد على أهل ذلك العصر أن ينظروا إلى السحرة كأنهم على اتصال بالشيطان . قال كلارك في كتابه : « ان من أبغض الأمور التي كان يتعاطاها السحرة في عصر اليصابات وما قبله ذلك النوع من السحر الذي كان يعرف بالعين الشريرة ( Evil Eye ) فكان من جملة معتقداتهم أن في استطاعة الساحرة أن توقع الضرر أو تميت الناس بمجرد القائها عليهم نظرة من نظراتها النارية ؛ فهذا العمل الذي كان يعتبر من أشد أنواع السحر ضرراً هو بمثابة الحجر الأساسي في بناء علم التنويم المغناطيسي المعروف لدينا الآن »[1]

وكان هناك نوع آخر من السحرة أقل ضرراً وخطراً ، ذلكم هو نوع العرافين أو المنجمين الذين كان الناس يقصدونهم كما يقصدون قارئي الكف في يومنا هذا . فكانوا يوهمون قاصديهم باتصالهم بالسماء والعالم العلوي فيقرأون المستقبل في الماء والهواء ، في النار والدخان . وكثيراً ما كانوا يضطرون إلى استشارة أرواح الأموات أو تأويل صياح الديكة في تفسير مايرونه من حقائق وأحلام

أما العفاريت فكان الناس يؤمنون بوجودهم الايمان كله ، وما هم إلا بقايا الأشخاص الخرافيين الذين عاشوا في عصر من العصور السالفة وأصبح في استطاعتهم بعد ذلك أن يهيمنوا على الانسان فيحولوا أعماله حسبما يريدون وانى يشاءون . نعم كان هذا الاعتقاد سائداً لدرجة أن أصبحت الكنيسة تعلم أبناءها

(1) Clark. Sh. & the Supernatural P. 21

(1) Clark. Sh. & the Supernatural P. 39

أن لكل رجل فى هـذا العالم رفيقاً من عالم آخر يحميه ويقيه غائلة الشر

وكان هنالك نوع آخر من الخرافة هو عالم الأشباح والخيالات . فما الشبح إلا روح غادرت جسدها الفانى وانتقلت من عالم الأموات إلى عالمنا هذا ترفرف فى الفضاء لتحقيق غاية من الغايات شريرة كالانتقام والقتـل ، أو خيّرة كحماية البشر وصـد الآلام عنهم . أشباح مرئية وأشباح غير مرئية تحلق بأجنحتها فى الفضاء فتملأ العالم خيالات لا يحصر عددها ولا يعرف مقدارها

عصر كله خرافات تتسلط على عقول أبنائه الأوهام ، ذلكم هو عصر اليصابات الذى يصفه كلارك بقوله : « على رغم أن ذلك العصر كان عصر بداءة وتمهيد للعلوم المعروفة لدينا الآن ، إلا أن معرفة الحقيقة والطبيعة لم تكن متقدمة للدرجة التى يستطاع بواسطتها القضاء على الخرافات السائدة ؛ فكان الناس يؤمنون بالسحرة والدجالين ، بالفلكيين والمنجمين ، بالحوريات والجنيات ، بالرقى والعزائم ، بالأحلام والاتصال بالأرواح . هذا الاعتقاد السائد كان أكبر عامل فى وجود هذه العوالم فى روايات المؤلفين الذين لم يستطيعوا بأى حال من الأحوال أن يخرجوا عن محيطهم وبيئتهم »(١)

## شكسبير والعقائد العامة :

شأن الشاعر أن يدون فى شعره كل ما كان معروفا فى عصره من العقائد العامة ، وهكذا كانت حال شاعرنا شكسبير ، فقد عرف تمام المعرفة أن الخرافات القديمة كانت مواضع خـلابة استعملها شعراء الاغريق والرومان فى صوغ عباراتهم وتفسير معانيهم ودقائقهم . ولم تكد العصور القـديمة تنطوى فى عالم السجلات والتاريخ حتى ظهر هناك عالم خرافى جديد كان فى حد ذاته خليفة للعصور التى سبقته ، ذلك العصر هو عصر القرون الوسطى التى لم يستطع الشعراء الاستغناء عن خرافاتها فى لغتهم بما نقلة السلف عمن سبقهم

ومما لاشك فيه أن شاعرنا قد تأثر بعدد غير قليل من العوامل : كالجنس والمحيط والبيئة ، فكان أفراد جنسه « يعتقدون أن كل ما هو غير مرئى حقيقة لا شك فيها ولا نقض » ، ولم تكن الخرافات فى عصره قد حوول مهاجمتها بمحاولة صادقة . نعم كان الاصلاح الدينى قد أخذ فى الانتشار فى البلاد الانكليزية إلا أنه كان مقصوراً على المدن . أما القرى فلم تكن قد تأثرت بهذا الاصلاح أى تأثير

عاش شكسبير فى عصر اضطربت فيه العقائد وتضاربت فيه الآراء ، فاعتقد بعض الرجال المتعلمين اعتقادات كانت بعيدة كل البعد عن عقول غيرهم من الناس ؛ وإن من حسن الحظ أن شكسبير يحاول فى بعض رواياته أن يظهر لقارئيه عقائده وآراءه الشخصية . فهو يعتقد فى الخرافات ، ولكنه يتساءل عن أصلها وكيفية ظهورها ، فهو يقول على لسان الأمير هملت :

« هل من الممكن أن نحسب ذلك الشخص الذى يقضى أوقاته كلها فى الأكل والنوم رجلا ؟ كلا إنه لا يتعدى أن يكون حيواناً فقط . إن من المؤكد أن ذلك الآله الذى وضع فينا قوة المجادلة والتمييز بين ما نعمله وما لا نعمله لم يضع فينا هذه المقدرة لنتركها دون أى استعمال أو ممارسة ، أما الآن فسيان عندى إن كان هذا الفكر مجرد وهم أو غموض سماوى . فالفكر لايحوى فى حد ذاته إلا جزءاً من أربعة من الحكم والصواب ، بينما اجزاؤه الثلاثة الأخرى لا تخرج عن كونها من عوامل الجبن والخوف ، فلا يمكننى الجزم فيما إذا كنت قد خلقت لأقول مجرد القول فى أن هذه الأمور يجب على أن أعملها ، فى حين أنى قد أوتيت القوة والارادة والحق فى عملها والقيام بها »(١)

إن من الصعب على الشاعر أن يستطيع البحث فى موضوع سماوى بطريقة جدية ترتكز على تفكر وبحث عميقين دون أن يكون له أدنى اعتقاد فى هذه الامور التى يبحث فيها ؛ وبنظرة عميقة لروايات شكسبير يمكنك أن تحصل على نتيجة لبحثه فى مثل هذه المسائل . وقد قال روف (Roffe) فى كتابه (شكسبير وعقيدته فى الأشباح) : « لم يستطع شكسبير أن يجعل أشخاص رواياته ينطقون عن عقائده ، ولكنه استطاع أن يظهرها فى رواياته »

(يتبع)

منيرى حماد

(1) Clark. Sh. & the Supernatural P. 33

(1) Hamlet IV 4. 40—46